قصَّة شعيب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِن

نشأ نبيُّ الله شعيب في مَدْين، نشأة ملؤها الإيمان العميق بالله. وكان كثير الصلاة، وكثير العبادة لله، غيوراً على مصالح قومه، ويسعى جهده لإيجاد السعادة لهم، وكان يقال عنه: إنَّه خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه ووعظه لهم.

وأرسله الله لهداية قومه إلى صراط الله المستقيم ... إلى توحيده... ونبذ ما كانوا يعبدون من دونه.

ومن عادة الأنبياء جميعاً، أنَّ أحدهم كان يرسل إلى قومه، لتوحيد الله وترك عبادة الأصنام من جهة، ولتصحيح الأعمال الخاطئة التي كان أبناء قومه يقومون بفعلها، ولتصحيح مجرى التعامل فيما بينهم وبين الآخرين، لأنَّ الدين حقيقته: نظام حياة كاملة تربط المخلوق بالخالق، والمخلوق بالمخلوق.

وكان أصحاب مدين أهل تجارة، فشت فيهم آفة اقتصادية كبرى، أوقعت الظلم على فئة من الناس لتنتعش بها فئة أخرى تأكل أموال الناس بالباطل.

إنها إنقاص الكيل والميزان، وهذه آفةٌ ذمَّ الله من اتَّصف بها وتوعَّده في صدر سورة «المطففين».

وكان أهل مدين يبخسون[1] ثمن الأشياء التي في حوذة الناس، لشرائها بأبخس الأثمان، وبيعها بأعلى الأثمان ليجنوا من جراء ذلك المال الوفير، ولم يهتمُّوا بجنيهم للمال، حلالاً كان أم حراماً.

شعيب مع قومه:

أرسل الله نبيَّه شعيب لدعوة قومه إلى التوحيد من جهة، ولأداء حقوق الناس فيما بينهم من جهة أخرى.

فدعا قومه بادئ ذي بدء إلي نبذ عبادة الأصنام والعودة إلى دين الله وتوحيده. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: 84].

وجاءهم بالحكمة والموعظة الحسنة يريد لهم النصح والرشاد، والسعادة في الدنيا والآخرة وأكل المال الحلال. وبيَّن لهم ما أعدَّ الله للمؤمنين من الجزاء في الآخرة. كما حذَّرهم أهوال اليوم الآخر، وموقف الحساب للخلق بين يدي الخالق جل وعلا، وكيف أنَّ للكافرين عذاب جهنم وبئس المصير.

ثم دعاهم إلى الإصلاح في الأرض بإعطاء كل إنسان حقه، وأن لا يخسروا المكيال والميزان إذا كالوا أو وزنوا للناس، طالما يقبضون ثمن ما يكيلون ويزنون من بضائع، وعلَّمهم الرزق الحلال. وبيَّن لهم أن ما يفعلونه في تعاملهم التجاري مع الناس، بإنقاص الكيل والوزن، ما هو إلَّا جشع، وأكلٌ لمال الناس بالباطل، وسرقة أموالهم.

---

(1) البخس: هو النقص، ويكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة الحقيقية.

كما نهاهم عن أن يبخسوا الناس أشياءهم؛ لأن ذلك يعدّ من الفساد في الأرض. وكان يقول لهم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟[1] فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 84-85].

وبالغ شعيب في نهي قومه عن ظلم الناس بتلك الأعمال الفاسدة وأكل حقوقهم بالباطل، ودأب على تنبيههم بأن ما يقومون به ما هو إلا الفساد في الأرض، وأرشدهم بدعوته إلى جمع المال الحلال. وكان يقول لهم ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ[2] إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86].

كما بيّن لقومه أنه مجرد نذير لهم، ولا يستطيع رد عذاب الله عنهم إذا ما نزل بهم. فكان يقول لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86].

بعد هذه الدعوة من شعيب لقومه في مدين، ماذا كانت ردّة فعلهم يا ترى؟!

هل امتثلوا لدعوته أم ماذا حدث؟!

فما إن سمع الناس تلك الدعوة من شعيب حتى ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87].

فكانوا في حوارهم معه يسخرون منه، ومن صلاته التي اشتهر بها بينهم منذ عرفوه. وسألوه هل إنّ الرشد في العبادة، يكون بترك ما يعبد

(1) لا تعثوا: لا تفسدوا في الأرض.

(2) بقيّة الله خير لكم: الرزق الحلال.

الأباء؟!... ويكون بتنظيم التصرُّف بالأموال لحفظ حقوق الناس؟!... وكيفية جني المال الحلال؟!

ما هذا الذي يقوله شعيب؟!

وعملوا على السخرية منه وكانوا يقولون له عندما يحاورهم ويدعوهم إلى سبل الخير: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] استهزاءً وسخرية به.

بعد كل تلك السخرية من قومه له، عاد شعيب لنشر دعوته بين قومه وكأنَّ شيئاً لم يكن.

كان لا يأبه بسخرية قومه له، لأنَّه من شدة إيمانه استوى لديه المدح والذم. والإنسان عندما يعمل لله ولدين الله لم يعد يأبه بما يقوله عنه الآخرون.

وهذا ما حصل مع شعيب فأراد أن ينشر دعوته بين قومه بالحسنى... يريد أن يدخل العقول والقلوب... ويريد أن يبين لهم دعوته التي أرسله الله من أجلها... وهي دعوتهم إلى التوحيد... وإلى تنظيم الحياة العامَّة والخاصَّة... من إعطاء كل ذي حقٍّ حقه... كأفراد وجماعات. وكان خطابه ليِّناً معهم بعدما سخروا منه و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ(1) إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

(1) ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه: أي ملتزم بسلوكي في كل ما أقوله لكم وأنهاكم عنه.

بعد كل تلك الموعظة من أهداف دعوته التي أتى بها لهداية قومه. حذَّرهم إن سخروا منه ومن دعوته أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم قبلهم: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط. فكان يقول لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ[1] أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: 89-90].

فلم ينتفعوا بذلك وأصرّوا على باطلهم فـ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 91]، يعرّضون به فيتّهمونه أنّه يقول كلاماً غير مفهوم، وتوعّدوه بأن ينتقموا منه إذا تخلّى عنه جماعته، لأنّه ضعيف بنفسه، قويٌّ بإخوانه، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91].

وهنا كان شعيب متيقّظاً لكلامهم وللحوار معهم بإيجاد البيّنة لهم على صدق دعواه، لعلّها توقظهم من غفلتهم، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: 92]، فردَّ عليهم خوفاً من بشرٍ مثلهم وعدم توقير خالق الأرض والسماء وتنكُّرهم له وإعراضهم عنه.

فضاق القوم بشعيب وبمن آمن معه وقرّروا أن يقفوا منه موقف العداء فخيّروه بين أمرين، أحلاهما مُرّ: فإمّا يخرج من بين أظهرهم، وإمّا أن يعود في ملّتهم. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88].

(1) لا يجرمنّكم شقاقي: لا يحملنّكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم عذاب.

فما كان من الكافرين من بني قومه إلا أن خاطبوا المؤمنين بدعوة شعيب وقالوا لهم: بأنَّهم هم الخاسرون. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90].

بعد ذلك توعَّد شعيب قومه الكافرين بالعذاب وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: 93].

وانتظر الجميع أمر الله ليتبيَّن الصادق من الكاذب. فكانت خاتمة الكافرين أن جاءهم الموت من حيث لم يحتسبوا، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ[1] ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 94 - 95].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ[2] فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: 36 - 37].

شعيب وأصحاب الأيكة:

بعد ذلك أمر الله نبيَّه شعيب بالتوجُّه إلى أصحاب الأيكة ومكانها في البادية قرب مدين. وهذا المكان عبارة عن غيضة تنبت ناعم الشجر. وكان أصحاب الأيكة كأصحاب مدين في العبادة وفي التعامل التجاريّ.

(1) جاثمين: مصروعين ميِّتين في أماكنهم.
(2) الرجفة: الزلزلة الشديدة بصيحة جبرائيل.

وجاءهم شعيب بأمر الله نذيراً لهم، فسكن بينهم وقام بنهيه عما هم فيه ليرشدهم لأمر الله. وكان يقول لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء: 177-180].

ومن عظته لهم أن أمرهم بأن يتمّوا الكيل والميزان إذا ما كالوا للناس، وأن لا يخسروا لهم ما يزنوه لهم بالميزان السويّ، وأن لا ينقصوا من حقوق الناس شيئاً، وأن لا يفسدوا في الأرض بالقتل والنهب وقطع الطريق على المارّة لسلبهم أموالهم وما شابه. وكان يعظهم بأن يخشوا الله الذي خلقهم وخلق الأمم من قبلهم. ويقول لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ [الشعراء: 181-184].

فما كان من هؤلاء المستمعين له إلّا أن ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ[1] ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء: 185-186]. أي: إنَّه ليس من المعقول أن يرسل الله هداة إلى الناس منهم، واستغربوا الأمر وأنكروا صدق دعوته.

ومن شدَّة سخريتهم من شعيب ومما يدعو إليه أرادوا بيّنة على صدق دعواه، ومن شدَّة حماقتهم أنهم طلبوا منه أن يسقط عليهم كسفاً من السماء[2] إن كان من الصادقين، ولشدَّة جهلهم لم يطلبوا الهداية إلى الحق، فسخروا من دعوته وقالوا له: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ

(1) المسحّرين: أصحاب الأمراض المستعصية.
(2) كسفاً من السماء: عذاباً من السماء.

لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: 186-188].

ولما أصرُّوا على تكذيب شعيب، أخذهم عذاب يوم الظلَّة بأن سلَّط الله تعالى عليهم الحر أيَّاماً حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم غمامة، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا عن آخرهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ[1] إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: 189-191].

وهناك ملاحظة يجب الإشارة إليها، أنَّ هناك خلافاً بين العلماء حول القوم الذين أنذرهم شعيب، هل هم شعب واحد أم شعبين؟

وما هذا الخلاف إلا لأن المُنذَرين كانوا في مدين وباديتها، أي: في بيئة جغرافية متقاربة ويتمتَّعون بالعادات نفسها.

وممن قال: بأنهم شعب واحد، اعتمد على أن الاثنين كانا يتَّصفان بالصفات نفسها من تخسير الكيل والميزان وإبخاس الناس أشياءهم إلخ..

أما من اعتمد بأنهم شعبان فبناءً على اختلاف عذابهم. فأصحاب مدين ماتوا بالرجفة[2]: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: 37]. وأصحاب الأيكة ماتوا بيوم الظلَّة، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 189].

---

(1) الظلَّة: السحاب الذي أظلَّهم واجتمعوا تحته.

(2) الرجفة: الزلزال.

العبر من قصة شعيب:

يؤخذ من قصة شعيب عدَّة عبر، منها:

1 - جاءت دعوة الأنبياء لهداية الناس إلى وحدانيَّة الله من جهة، ولتنظيم حياتهم وحماية حقوق العباد من جهة أخرى.

2 - يحقق مجيء الأنبياء الصلاح في الأرض.

3 - على الإنسان أن لا يؤخذ بزخرف الدنيا فيظنُّها باقية. ويغفل عن خالقها.

4 - الدين عقيدة وشريعة ومنهج حياة.

5 - من عادة الناس أن يسخروا ممن يخالفهم، وإن كان على الحقّ الواضح.

6 - على حامل الدعوة أن لا يتأثَّر بسخرية مخالفيه، ويصبر على تبليغ دعوته.

7 - السعيد من وُعِظَ بغيره. فها هم قوم شعيب قد حصدوا ما زرعوا من الكراهية للحق.

8 - يجب على الإنسان أن لا يفضل على الله شيئاً.

9 - يجب احترام الإنسان لذاته، ولِما يدعو إليه، لا خوفاً من عشيرته وقبيلته.

10 - إنَّ الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

11 - صبر الأنبياء فيه قُدوةٌ وأسوةٌ للدعاة.

12 - يجب على الداعي أن يثق بدعوته قبل أن يدعو الناس إليها.

13 - المؤمن يؤثِّر في غيره فيحوِّله عن باطله إلى الحقِّ، ولا يتأثَّر بغيره فيتحوَّل عن الحقِّ إلى الباطل.

14 - يجب على الإنسان أن يقدِّم أوامر الله ونواهيه على هوى نفسه.